تكريم الدكتور حسين نصار

أسلوب يحتذى

د. ماهر شفيق فريد*

بمبادرة تعرف أقدار الرجال أقام الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم ، والعاملون معه وعلى رأسهم الروائى الشاعر الدكتور أحمد درة حفلا حضرته نخبة من المثقفين والمفكرين تكريما للأستاذ الدكتور حسين نصار ـ أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ـ وذلك بمناسبة فوزه بجائزة الملك فيصل للأدب العربى .

حصل حسين نصار على درجاته الجامعية الثلاث من قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، جامعة القاهرة : الليسانس الممتازة عام ١٩٤٧ ، الماجستير بدرجة جيد جدا عام ١٩٤٩ برسالة موضوعها «نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى» ، الدكتوراه بتقدير ممتاز عام ١٩٥٣ برسالة عنوانها «المعجم العربى : نشأته وتطوره» .

وعلى امتداد مسيرته العلمية أخرج حسين نصار حصادًا علميا وفيرا تتوافر فيه شرائط البحث الأكاديمى والثقافى العام من أصالة وأمانة ودقة وإحاطة . إن له من الكتب المترجمة «المغازى الأولى ومؤلفوها» لهوروفتس (١٩٥٠) «تاريخ الموسيقى العربية» (١٩٥٦) «مصادر الموسيقى العربية» (١٩٥٧) «أرض السحرة» للويس (١٩٥٧) .

ومن الكتب التى حققها مع أبحاث : «ديوان سراقة البارقى» (١٩٤٧) «ديوان ابن وكيع التنيسى» (١٩٤٥) «رحلة ابن جبير» (١٩٥٥) «ديوان عبيد بن الأبرص» (١٩٥٧) «ديوان جميل» (١٩٥٨) «المحكم فى اللغة» لابن سيده (١٩٥٨ ، الجزء الأول بالمشاركة مع الأستاذ مصطفى السقا) ، «معجم آيات القرآن» (١٩٥٤) كما صدرت أطروحتاه للماجستير والدكتوراه فى كتب تحمل عنوانى «نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى» (١٩٤٥) و«المعجم العربى» (١٩٥٦) على التوالى .

لن أتوقف عند هذه الأسفار الجليلة التى يعرفها المتخصصون وأقران نصار وتلاميذه من أساتذة الجامعات وباحثيها وطلاب الدراسات العليا فيها . وثمة غيرها لم أذكرها فما إلى الاستقصاء أردت ، وإنما هى أمثلة أضربها . سأتوقف وقفة قصيرة عند ثلاثة أعمال له أقرب متناولا وأدنى إلى فهم غير المتخصص مثلى ومثل كثيرين غيرى هى كتاب «مصر العربية» وكتاب «الشعر الشعبى العربى» ومختاراته من كتاب «الكامل» للمبرد .

(*) أستاذ الأدب الإنجليزى ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة .

«مصر العربية» طبعة ثانية مزيدة ومنقحة ، دار الثقافة العربية نوفمبر ١٩٦١ (وكانت الطبعة الأولى قد صدرت فى فبراير ١٩٦٠) مجموعة أبحاث تلم بأطراف من حالات مصر الأدبية والثقافية ، سعى فيها المؤلف ـ كما يقول فى مقدمة الطبعة الأولى ـ إلى أن يقدم نتائج علمية جديدة وحقائق أدبية وصفحات غير معروفة من أدب مصر وتاريخها فيضع مصر في وضعها الحق بين أخواتها العربيات .

تحمل فصول الكتاب العنوانات الآتية :

«دولة مهملة : أو دولة السرويين ، وهى إمارة مصرية قامت فى العصر العباسى الأول ، وخلافة بغداد فى أوج مجدها ، وكانت على قسط من الاستقلال الذاتى .

مملكة الساحل : أو إمارة الجرويين ، وهى مملكة كانت تمتد على ساحل مصر على بحر الروم (البحر المتوسط) فى زمن النزاع بين الأمين والمأمون ، ودامت حوالى اثنتى عشرة سنة (١٩٩هـ - ٢١٠هـ) .

الخلافة المصرية الأولى : (وهى خلافة أموية مروانية أقامها مصرى خالص المصرية ، وذلك حين نصب مروان بن الحكم ، بعد دخوله مصر أيام النزاع بينه وبين الزبيريين ، ابنه عبد العزيز بن مروان واليا عليها وجعله الخليفة بعد عبد الملك بن مروان .

المقاومة القولية : ويقصد بها مقاومة المصريين ، شعرا ونثرا ، لمن لم يرضوا عنه من خلفاء وأمراء .

بنو هذيل : وهم قبيلة عربية كبيرة من مُضر كانت تعيش فى المنطقة الممتدة بين المدينة ومكة والطائف نبغ منها شعراء .

آل العاص : وأهمهم عمرو بن العاص فاتح مصر الذى كان ـ بالإضافة إلى قدراته العسكرية ودهائه ـ شاعرا مُحسنا مجيدا وخطيبا مصقعا ، وأكبر أبنائه عبد الله ، وزوجة عمرو عاتكة بنت زيد .

الأكدر بن محمام اللخمى : وهو شاعر عاش فى مصر ، وكان هواه مع العلويين .

أبو أيوب الأنصارى : وهو صحابى له مقطوعة فى وقعة صفين .

شاعر الحياد العربى : وهو أيمن بن خزيم الأسدى ، وقد اتخذ موقف الحياد من الفتن التى أغرقت العالم الإسلامى فى المنازعات والخصومات والقتال ، واعتزل عليا ومعاوية وإن كان هواه أقرب إلى الأول .

أبو تمام فى مصر فى الفترة ما بين (٢١١ - ٢١٤هـ) وقد اختلفت الآراء فى تاريخ نزوله بها ، وناقش نصار آراء لمرجوليوث وشوقى ضيف ونجيب البهبيتى فى هذا الصدد ، مرجحا أنه نزل بها فى زمن مبكر ودرس الأدب فيها ، وأول شعر شدا به كان فيها .

البحترى ومصر : حيث أوضح صلاته ، قوة وضعفا ، بمصر وخاصة فى عهد الدولة الطولونية .

والمحطة الثانية التي أتوقف عندها هى كتيب حسين نصار «الشعر الشعبى العربى» (سلسلة المكتبة الثقافية ، أول مايو ١٩٦٢) وفيه يبين أثر الظروف الاجتماعية فى شعر العصور الجاهلية والأموية والعباسية . ويعرِّف المؤلف الأدب الشعبى بأنه «الأدب الذى يصدره الشعب فيعبر عن وجدانه ، ويمثل تفكيره ، ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية ، ويوجه اهتماما خاصا إلى الرجز ، وأغانى الأفراح ، وأغانى الطفولة أو ترقيص الصبيان ، وأغانى الآبار ، وأغانى البناء ، والحداء ، وأناشيد الحروب والنواح ، وأدعية المتسولين ، واللغة العامية والزجل والمواليا .

ويتكامل هذا الكتيب وكتاب شوقى ضيف «الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور» كما يتكامل وجهود دارسى الأدب الشعبى من مختلف الأجيال مثل أحمد تيمور وأحمد أمين وأحمد رشدى صالح وعبد الحميد يونس ، و أحمد مرسى ، وشمس الدين الحجاجى ، وسعد الخارم وفاروق خورشيد ومحمد إبراهيم أبو سنة وصفوت كمال وغيرهم .

وآخذ على هذين الكتابين ـ إن كان لى أن أفعل ـ أنهما يخلوان من الهوامش التى تشرح المفردات العربية الصعبة أو غير المأنوسة . وقد يحتج المؤلف بأن ثانى الكتابين على الأقل ، لم يتسع لمثل هذا مراعاة لاعتبارات الحيز وطبيعة السلسلة الثقافية المبسطة التى صدر فيها . ولكن أى جدوى من إيراد أبيات شعر أو قطع نثر غير مشكولة لا يفهم القارئ معناها أو لا يفهمها إلا جزئيا ، وقد يكون العلم الناقص ، فى بعض الحالات ، أسوأ مغبة من الجهل الصريح .

والكتاب الثالث هو «المختار من كتاب الكامل» للمبرد المتوفى فى القرن الثالث الهجرى ، مع مقدمة ، والكتاب صادر بمراجعة الأستاذ مصطفى السقا عن وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ولا يحمل تاريخا وإن كانت مقدمة الدكتور نصار مؤرخة فى منتصف يناير ١٩٦٠ . كان المبرد عالما غزير التواليف ، ألف فى النحو واللغة والأدب والأخبار والأنساب وغيرها ، وكتابه «الكامل» يلقى أضواء غامرة على تاريخ العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، وفى حياتهم السياسية والثقافية والأدبية ، أو على حد قول المبرد : «هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ، مع تفسير الكلام ومستغلق المعانى ، وشرح ما يعرض من الإعراب شرحًا وافيا» . ويكفى للدلالة على قيمة الكتاب فى تاريخ الأدب العربى أن العلامة ابن خلدون يروى أنه سمع من شيوخه فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة

دواوين هى «أدب الكاتب» لابن قتيبة ، وكتاب «الكامل» للمبرد ، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ ، وكتاب «النوادر » لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها .

يستوقف المرء فى مسيرة الدكتور حسين نصار أمران ـ أو بالأحرى درسان ـ أحدهما علمى والآخر أخلاقى ، وإن ذابت الحدود بينهما وتداخلت . أما الدرس العلمى فهو أن كتاباته قد خلت من عيب يعتور الكثير من أبحاث أساتذة الأدب العربى لدينا إلا من عصم ربك : أعنى آفة الإطناب اللفظى ، والتزيد فى اللفظ ، والجرى وراء غواية الكلمة والصورة . ففى أبحاث حسين نصار منطق صارم ، والكلمة تلائم المعنى ملاءمة القفاز لليد ، وكل شىء لديه تحكمه وظيفية صارمة : فلا جملة زائدة عن الحاجة ، ولا أنت بقادر على أن تحذف منه ـ وإن أمكن أن تضيف إليه ـ شيئا .

هذا درس يحسن بشباب الباحثين أن يتلقوه عنه ، فإنما انضباط التعبير مرآة لانضباط الفكر ، وكم دعا أديبنا الكبير يحيى حقى إلى أن يتعلم كتابنا وباحثونا فضائل الدقة والتحديد والإيجاز .

وأما الدرس الأخلاقى فهو أن هذا العالم الجليل قد عكف منذ مطلع شبابه على تحصيل العلم والنهل من حياضه فى صمت وتبتل ، لم تفتنه أضواء الشهرة ولا كاميرات المصورين ولا كلمات المتملقين ، وإنما مضى على دربه الشاق المستوحش ، يضيف إلى العلم جديدا ، ويخرج جيلا بعد جيل من باحثين أصبح بعضهم الآن أساتذة كبارا يدينون له بالفضل ، وهو فى ذلك قرين جيل عظيم من أساتذة اللغة العربية وآدابها : د . سهير القلماوى ود . عبد العزيز الأهوانى ود شوقى ضيف ، ود . يوسف خليف ود . نبيلة إبراهيم ود . محمود فهى حجازى ود . محمود على مكى ، ود . عبد الحميد يونس وأضرابهم .

كان شعاره فى الحياة هو شعار أستاذه ـ وأستاذنا ـ أمين الخولى رائد جماعة الأمناء الذى وضع عنه نصار كتابا جميلا . لم يسع حسين نصار قط إلى جائزة أو منصب ، وإنما أتته الجوائز والمناصب (ومنها عمادة كلية الآداب بجامعة القاهرة ورئاسة أكاديمية الفنون بالهرم) منقادة إليه تجرر أذيالها ، ولم يقف بباب مسئول كبير ولا صاحب منصب خطير راجيا أو خاطبًا ودًا ، فقد كان يعرف ـ شأن فقهائنا وعلمائنا القدامى العظماء ـ أن العالم لا يسعى لأحد وإنما يُسعى إليه ، ويخطب وده الخلفاء والأمراء . وهذا درس آخر ما أحوج الأجيال الجديدة ـ وبعض القديمة أيضًا ـ إلى أن تتعلمه منه .